

منذ 1909، لا يزال قادة حزب "الاتحاد والترقي" الملتزمين بفكرة القومية التركية يسيطرون على الحكم في الأستانة. ينادي الحزب بتفوق الأتراك عنصرياً على غيرهم من الشعوب الخاضعة للسلطنة، لذلك يرون أن مهمة القيادة يجب أن تقع على العنصر التركي المستنير. ولقد شددوا المركزية الإدارية وطبقوا سياسة تنريك جميع رعايا السلطنة، مسلمين أو غير مسلمين. بدأت حركة قومية عربية مناهضة للتنريك فظهرت جمعيات علنية تطالب باعتماد اللامركزية الإدارية. كما بدأ تنشيط الجمعيات القائمة سراً وتشكلت جمعيات جديدة لمعارضة هذه السياسة والمطالبة بالإصلاح السياسي الذي يضمن حقوق العرب في السلطنة.

أصبحت الدراسة الابتدائية متاحة للجميع لا سيما في المدن وفي معظم مناطق الجبل. كما أن الدراسة الثانوية متاحة، لكن تكاليفها عالية. نشطت الرسائل البروتستنتية الأميركية والكاثوليكية الأوروبية في إنشاء المدارس في القرن التاسع عشر وأنشأت السلطنة عددا من المدارس في المدن. في بيروت كليتان للدراسة العالية في الآداب والعلوم والطب. ينشط النشر منذ القرن التاسع عشر، فبين 1870 و1900 نشرت المطابع ما لا يقل عن أربعين منشوراً دورياً بما فيها خمسة عشر جريدة. يعتبر لبنان منذ بدايات القرن العشرين أكثر أجزاء السلطنة العثمانية تقدماً في مجال التربية العامة.

يمارس اللبنانيون الزراعة لا سيما زراعة الزيتون لما يوفره من مواد، والعنب لإنتاج النبيذ وأشجار التوت لتصدير الشرائق إلى فرنسا حيث استخدم في صناعة الحرير. خصّصت لزراعة "الحرير" آلاف قطع الأرض المزروعة ولقد طغت على المحاصيل المعيشية ومنها القمح والحنطة والحبوب التي أصبح إنتاجها لا يسدّ غير قسم صغير جداً من حاجة الأهالي الذين يضطرون إلى شراء القمح من المناطق الداخلية. في 1913، قرّر المتصرف أو هانس باشا إنشاء ثلاثة مرافئ جديدة في جونية والنبي موسى وشكا لينشط التجارة. ولكن يبدو أن قرب الحرب أوقف هذه الخطوة.

غادر بين 1860 و1914 ما يقدر بثلاث سكان جبل لبنان ومعظمهم من الفلاحين الموارنة وبعض الدروز. معظمهم هاجر عبر البحار بحثاً عن مورد رزق يعينه ويعين عائلته. نجح الكثيرون منهم في جمع ثروات وأخذوا يرسلون الأموال إلى ذويهم الذين يعتمدون عليها لتأمين حاجاتهم. منهم من عاد آملاً في شراء أراض لكن كثيراً ما اصطدموا برفض المالكين القدامى بيع أراضيهم، وبتوسّع أوقاف الكنيسة المارونية. وللأسف، استقر معظمهم في مواطنهم الجديدة، ومنهم من ساهم في قيام نهضة أدبية لتعزيز الثقافة العربية وتأكيد حق الولايات العربية في أن تحكم نفسها بنفسها وأن تنال استقلالها.

أصبح المرء يلحظ غزو الحياة الأوروبية وتغيّر مظاهر حياة اللبنانيين من لباس وطعام وأثاث خلال حقبة المتصرفية. وبدأت التغيرات واضحة للعيان. ولقد صعدت طبقة اجتماعية وسياسية جديدة مرتبطة بنمو اقتصاد الحرير والهجرة لعبت دوراً واضحاً في مجلس إدارة جبل. تشكلت هذه الطبقة المتوسطة من أسر المقاطعية القدامى وملاك الأراضي المتوسطيين والموظفين وأبناء المهن الحرة والمهاجرين العائدين. ووقعت في الوسط بين طبقتي المشايخ والعامة، اللتين كانتا تشكلان أساس التراتب الاجتماعي منذ عهد الإمارة.

عين أو هانس قيومجيان باشا متصرفاً بفرمان سلطاني في أوائل 1913. مع إعلان تركيا الحرب، أرسل الجيش العثماني إلى المتصرفية وألغيت امتيازات جبل لبنان ونظام المتصرفية. أرسل الجيش العثماني بقيادة جمال باشا فانتشر في جبل لبنان وولاية بيروت، وأرسل جمال باشا للمتصرف أمراً بعدم القيام بأي تعيين أو إقالة أو نقل للموظفين قبل التشاور مسبقاً مع القيادة العسكرية. أمام هذه المضايقات وسلطات جمال باشا المطلقة في المنطقة، قدّم أو هانس باشا استقالته.